

لا تعارض بين الدعاء والقضاء



﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِزْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد / 39).

"إن" الدّعاء يردّ القضاء، ينقضه كما ينقض السلك، وقد أبرم إبراماً.

"ادع الله عزّ وجلّ، ولا تقل إن" الأمر قد فرغ منه".

وفي الحديث عن موضوع الدعاء، وعن الاستجابة وتغيير الأمور، ورفع ما قدر، ودفع ما قد يقع من الأمور والحوادث التي تحل بالإنسان، من المحن والشدائد، والحوائج، والذنوب... إلخ.

في الحديث عن ذلك كلام، لابدّ لنا من أن نتحدث عن علاقة (القضاء والقدر)، وعن علاقة (علم الله وإرادته) بالاستجابة للدعاء، ونبيّن كيف يصحّ تغيير الأمور ورفعها وإبطالها بعد تقديمها في قضاء الله وتقدير وجودها، وحصولها في علمه، وهل يتربّ على ذلك التغيير نتائج عقidiّة تؤدي إلى القول بتغيير علم الله، وبطalan قضائه وقدره وفق مشيئة الإنسان، وبالتالي تغيير مشيئة الله؟

وكيف يغيّر الله الحوادث بعد إبرامها؟

هل كان يجهل ما هو صالح من الأمور، ولم تتحقق له إلا بعد الدعاء، وشكوى العبد من مرارة البلاء؟ وهو المنزّه عن ذلك.

أو أنّ "أفعاله تعوزها الحكمة والإتقان فتأتي مضطربة تحتاج إلى تصحيح وتسديد، وهو المتنزّه المتعال؟"

إنّ "كثيراً" من الناس الذين يجهلون حقيقة العلاقة بين قضاء الله وقدره، وعلمه بالأمور والحوادث من جهة، وبين تغييرها من حال إلى أخرى، أو رفعها وإبطالها من جهة أخرى يثيرون زوبعة من الشكوك والغبار حول الدعاء، ويتوهمون تغير علم الله تعالى، وإرادته .

فيكون الله تعالى مع هذا التغيير - كما يتصرّف هذا الفريق من الناس - علمان وإرادتان:

علم وإرادة سابقة على التغيير، وهذا اللذان ثبّتا تقدير الشيء على حالته الأولى، وعلم وإرادة حين التغيير، وهذا اللذان أحدثا التغيير، والتبدل الجديد، بعد حالته الأولى .

وهذا يعني بالنتيجة أنّ "علم الله سبحانه وإرادته متناقضان وقاصران عن تحقيق خير الوجود، ودقة نظارته ."

ولتحقيق هذا المفهوم، وردّ هذه الشبهة، لابدّ للإنسان المسلم من أن يفهم:

أولاً: أنّ "تغيير الأمور بإبدالها، أو رفعها عن الإنسان، بسبب الدعاء لا يعني تبعية إرادة الله لإرادة الإنسان، ولا يعني بطلان القضاء والقدر، لأنّ "تغيير الحوادث يجري أيضاً وفق قضاء وقدر ناسخ للقضاء والقدر الأول، فهما قضاء وقدر واحد في تقدير الله ومشيئته، وما التعدد والفارق الزمني إلا أمر مرتبط بذات الحوادث الجارية في عالم الإنسان ."

ثانياً: لا يعني تغيير الأشياء والحوادث بسبب الدعاء، تغيير علم الله، ذلك لأنّ " سبحانه بحكمته ولطفه، ورحمته بعباده، قد جعل بقضاء وقدره أيضاً وسابق علمه دعاء الذي أعي عنده، وقبل، وبعد نزول البلاء به، أو انقطاع حوائجه عنه، سبباً لكشف البلاء، أو غفران الذنب، أو قضاء الحاجة ."

فسببية الدعاء بهذا الاعتبار جزء من قضاء الله وقدره، وليس خارجاً عنهما أو متعارضاً معهما، أي إنّه حقيقة مقدّرة في قضاء الله لدفع ما قدّر، شأنها في القضاء شأن بقيّة الحقائق التي وقعت على الإنسان، كالحاجة، والمرض، والمحنة... إلخ. ولكشف غواص هذا الموضوع فلنقرأ الآيتين الآيتين، مشفوعتين بإيضاح وتفسير من قبل الحديثيين المرويّين عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، والآيات هما :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيدُهُ إِنَّ اللَّهَ بِالْغَيْرِ أَمْرٌ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق / 3).

(صُدْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِزَاهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) (النمل / 88).

وفي الآية الأولى نقف على حقيقة هامّة في قضاء الله وقدره. فهو سبحانه قد جعل لكلّ شيء في عالم الموجودات قدرًا من الزمان والمكان والوجود والمكوّنات والنّتائج والغايات... إلخ، بما يناسبه ويحقق الحكمة والمصلحة من وجوده، وإنّه سبحانه مدركه، ومحقه، ولا يمكن أن يفوته، أو يعجزه تحقيقه .

والآية الثانية تلقي مزيداً من الضوء على الآية الأولى (صُدْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) فكلّ شيء حسب منطق الآية هو متقن، وليس هناك من ثغرة، أو نقص، أو عبث، أو جهل، في هذا

فحياة الإنسان، وما يجري عليه من الأمور – وفق منطوق الآيتين – (قدرة – متقنة)، وهي من أمور الله التي يجب أن يتحققها بعد أن يثبت صلاحها في علمه وحكمته .

(إِنَّ اللَّهَ بِالْعِلْمِ أَكْمَلُهُ) وليس لشيء أن يتمرس على إرادة الله أو مشيئته .

وقد أمدنا القرآن بشواهد ونماذج واقعية من دعاء الأنبياء، واستجابة الدعاء لهم بعد وقوع البلاء بهم، وتغيير الحوادث والواقع:

(وَزُوْجًا إِذْ رَأَدَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبَلَةِ) (الأنبية / 76).

(وَأَيْسُوبَ إِذْ رَأَدَى رَبِّهُ أَنْسِيَ مَسْنَدِيَ الصُّرُّ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِتَعَابِدِنَّ) (الأنبية / 83 – 84).

(وَذَا الْذُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَانَ أَنْ لَهُ زَقْدَرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الطُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنْسِي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (الأنبية / 87 - 88).

(وَرَكَرَيْسَا إِذْ رَأَدَى رَبِّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرِدًا وَأَرْتَ خَيْرَ الْوَارثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) (الأنبية / 89 - 90).

فهذا العرض القرآني الصريح يكشف لنا بوضوح تام، العلاقة السببية بين الدعاء وتغيير الحوادث والواقع الجاري في دنيا الإنسان. وإن كل هذه الحقائق تجري وفق الحقيقة الكبرى التي عبر عنها الوحي الإلهي بقوله:

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُمَّ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (الرعد / 38 – 39).

فإنّه يغير ويبدل الأمور والحوادث بمشيئته، ووفق إرادته وقضاء محكم وترابط التقدير وليس هدماً طارئاً للقضاء والقدر الذي ثبت بحكمة الله ومن غير تقدير، أو علم إلهي مسبق .

أمّا الحديثان اللذان يوضحان أن الدعاء إنما يقع سبباً وفق قضاء الله، لتنفيذ ما أراد الله وقضى بخفي علمه ولطفه، من تغيير الحوادث والواقع التي ستحدث:

"إذا ألمهم أحدكم الدعاء عند البلاء فاعلموا أنّ البلاء قصير".

(إن الله عزّ وجلّ لا يدفع بالدعاء الأمر الذي علمه إن يدعى له فيستجيب، ولو لا ما وفق العبد من ذلك الدعاء لأصابه منه ما يحذّه من جديد الأرض".

وبالتأمّل بنص هذين الحديثين، والتدقيق بهما والوقوف عند العبارات (ألهـم)، (الأمر الذي علمه أن يدعى له فيستجيب)، (ولولا ما وفق العبد)، وبالوقوف عند هذه العبارات، نجد أنَّ الإلهام والتوفيق من أَنْ كانا لسابق علم أَنْ بِأنَّ العبد سُبُّتلى وإنَّ ي يريد المذَّة عليه واللطف به، فقضى بحكمه أن يلهمه الدعاء ويوفقه إلى المسألة بكشف الضَّر عنه، فيكشف عنه ضَرٌّ، ويحبب له طلبه تعبيداً للإنسان، وإشعاراً له ب حاجته إلى أَنْ سبحانه، وبفضل أَنْ ولطفه به .

وبذا يتَّضح لنا أَنَّ علم أَنْ وقضاءه لا يتناقضان مع الدعاء، وأنَّ التغيير في الأحداث والواقع التي تجري على الإنسان إنَّما تجري وفق علم مسبق بحدوث الشيء وتغييره، وإنَّ هذا التغيير جرى على أساس من قاعدة السببية الجارية على كلَّ حقيقة في عالم الإنسان .

وإنَّ العلم الإلهي والقضاء محيطان بهذا التغيير وسابقان له ولا شيء يكون جديداً أو متعارضاً مع قضاء أَنْ وعلمه .

فأَنْ يعلم بالحوادث، و بتغييرها ، وعلى أساس هذا العلم كان القضاء، قضاء بوقوع الحوادث، وقضاء يجعل الدعاء سبباً للتغيير، وقضاء بالتغيير ▶.